ASJP
Algerian Scientific Journal Platform
مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351
المجلد 06 / العـدد: 01 (2021)، ص 64-72

المادة الاثنوغرافية في المتن الرحلي بين الاستكشاف والتهديد

–رحلة ابن الدين الأغواطي نموذجا-

The ethnographic material in journey text between exploring and threatening

- Ibn al-Din al-Aghawati's journey-

سميرة قروي

جامعة خنشلة (الجزائر)

samira.garoui@univ-khenchela.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
21 سبتمبر 2020
تاريخ القبول:
21 اكتوبر 2020

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الأدب الرحلي
- ✓ المادة الاثنوغرافية
- ✓ المادة الاستكشافية

الملخص:

يقدم الأدب الرحلي مادة اثنوغرافية وهو يجلي صورة الآخر في مخيال المرتحل، ولنا أن نميّز أدبيات الرحالة الذين عكفوا على تسليط عدساتهم بغاية استطلاعية استكشافية لنبيّن خطورة ما يقدمونه من كشف جغرافي، ومادة وفيرة ومعرفة موسعة للطامع بالاستعمار.

هدف هذه الدراسة هو رصد صورة الجزائر التي تحضر في عدسات رحالة مغاربة كثر، ومدى خطورة المادة التي يقدمها هذا المتن أحيانا.

وتصل الدراسة إلى نتيجة مفادها أن متونا كمتن الأغواطي تغدو مفخخة، لأنها تقدم معرفة امتيازية للأجنبي خاصة في ظل المد الاستشراقي والأطماع الاستعمارية آنذاك.

Article info

Received
21 Septembre 2020
Accepted
21 Octobre 2020

Keyword:
- ✓ *journey literature,*
- ✓ *ethnographic material,*
- ✓ *exploration material,*

Abstract

The journey literature presents a rich ethnographic material, which can be serious of the content that it present from a abundant large knowledge to the greed of colonialism.

The study aim is to monitor the image of Algeria, which appears in the lenses of many Moroccan travelers, and the severity of the material provided by the text.

The text of El-Aghawati provides excellent knowledge to the foreigner, especially in light of the Orientalist tide and colonial ambitions.

. مقدمة:

يتضمن أدب الرحلة في حديث المرتحل ما ترصده عينه الناظرة من جغرافيا وعمران، وحياة اجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية وفكرية وثقافية، فهو سجل حافل بمادة اثنوغرافية ومباحث أنثروبولوجية. لكنه حين يقدّم ربورتاجاته الاستطلاعية لا يكتفي بالرصد والتقصي لكل ما يكسر ألفة المكان والثقافة، بل قد يعمد إلى المقارنة؛ مقارنة المناطق المرتحل إليها بعضها ببعض، أو مقارنتها بديار المرتحِل ذاته، وهذه المقارنة ستجلي خصوصيات ثقافة ناظرة قد تباين هذه الثقافة المنظورة، فتؤطر الرؤية وتوجهها وتؤدلجها، بل قد تكشف منها ما يشكّل تهديدا.

وحضور الجزائر في الأدب الرحلي تَوزَّع على اهتمامات كثيرة لرحالة عرب، نظروا إليها من زوايا متباينة، ولعل تركيزنا على حضورها في الأدب الرحلي المغاربي سيجلي زوايا هذا الرصد وجمالياته وأهدافه، وإشكالية هذا البحث تتأسس على سؤال: هل هذه المتون الرحلية تقدّم مادة استكشافية بريئة تسهم في التعريف بالأمصار وتخليد آثارها، أم أنها بما تقدمه من مادة اثنوغرافية وكشف جغرافي تبطن تهديد التعرية والكشف بما تقدّمه من معرفة امتيازية للأجنبي خاصة مع المدّ الاستشراقي والأطماع الاستعمارية، وسياسة التبشير الديني التي عرفها مطلع القرن التاسع عشر؟

والدراسة تتوسل بالمنهج التاريخي -وعبر إجراء المقارنة والوصف والتحليل- تحديد خصوصيات بعض هذه المتون الرحلية، وبيان الملغم منها ونوع وحجم الخطورة التي يحملها.

2. الجزائر في أدب الرحالة المغاربة:

انتقينا للدراسة رحلات كل من التمقروتي، والعياشي، والزياني الفاسي، والحاج ابن الدين الأغواطي، لنبحث مضامينها وقيمتها، ثم نقارن بينها وبين رحلة ابن الدين لنبيّن أوجه التباين بينها، ومخاطر المتن الرحلي لهذا الأخير.

1.2 مضامين رحلات التمقروتي والعياشي والزياني:

تضمنت رحلة التمقروتي* التي تسمى بـ"النفحة المسكية في السفارة التركية" تفاصيل تخص طريق الساحل الذي قطعه من هنين إلى بونة، فذكر المدن وعمرانها، ومنتوجاتها، والحصون والأسوار الدفاعية. وأعجب باسطنبول الصغرى (العاصمة)، فأشاد بحصونها وأسواقها ومنتوجاتها، بل حتى برياسها الذين فضلهم في تفوقهم العسكري على أتراك القسطنطينية حتى أنه من فرط اعجابه بها جزم قائلا بأنها "أفضل من جميع بلاد أفريقية وأعمر" (بالحميسي، د.ت، صفحة 24). كما ضمنها قائمة لعلمائها المشهورين بعد أن أولى عناية خاصة بالأحياء منهم والأموات.

أما العياشي** فقد اشتهر برحلة "ماء الموائد" التي كانت في النصف الثاني من القرن السابع عشر، تصوّر حياة الصحراء الجزائرية في بعدها الأنتروبولوجي والإثنولوجي، مفصّلة الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية للجنوب الجزائري؛ فسياسيا أشار إلى استقلال أجزاء كبيرة من البلاد عن الحكم العثماني، مبينا الأسباب والنتائج، واقتصاديا التفت إلى خيراتها، ومعادنها، وما تنتجه من تمور وفواكه وخضر، والصيد.. وفصّل الحديث في أنواع البضائع والسلع وأثمانها، وأماكن الغلاء والعملات..

أما ثقافيا، فركز على الزوايا، ودور العلم والتعليم والإشعاع الفكري، والعلماء وأنواع الكتب بل عيونها التي لم يجدها في غيرها. كما ركز على ذكر أضرحة علمائها، ورجالها الصالحين وكراماتهم، فضلا عن العادات والتقاليد المخالفة والمختلفة، وألوان الفتاوى والمفتيين، وأحوال الأئمة. واجتماعيا، ضمنها العلاقات الاجتماعية، فالرحالة يختلط بأفراد المناطق المرتحل إليها، يجالسهم ويحاورهم ويبيعهم ويبتاع منهم، وهو في كل ذلك يرصد طباعهم وعاداتهم وأخلاقهم ومللهم وفرقهم، كما صور طرق معاملة الحجاج، ووصف الأحوال الأمنية التي عاناها الركب في بعض شعاب الأعراب، وفي مناطق انتشار الأوبئة أو المناطق التي تخاف من جلب الحجيج للأوبئة. أما جغرافيا، فقد فارق طريق من سبقه من تركيز الحديث حول الصحراء في رمالها، وندرة مياهها، فالتفت إلى أنواع الأراضي فيها، يقول مصورا إحداها: "أرض مزقت من حروشتها

النعال وآلمت أخفاف الإبل وحوافر البغال، فلففنا على الأرجل الخرق والرقاع كأننا في "غزوة ذات الرقاع"، تتعارج في أرض صفصف قاع" (بالحميسي، د.ت، صفحة 82)

والتفت إلى أنواع الحمادات والواحات. بل وعنى عناية فائقة بأخبار الماء وأحسائه، وأسماء الوديان وخصائصها. وكان يبث بين كل هذه سلسلة لطائف وغرائب لما رآه ينكه بها ما يسرد من رحلته، فضلا عن أسلوب سلس كان للبيان فيه والبديع حظهما من توقيع شعرية متميّزة.

أما الزياني*** فكانت رحلته "الترجمانة الكبرى" في أواخر القرن الثامن عشر، وقد "جمعت أخبار العالم برا وبحرا، وما تخللها من الأمصار، والمدن والقرى والقفار، والبحر والجبال والأنهار، والعيون والمعادن والآبار، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار.. ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الأشعار. وهي رحلة إلى اسطنبول .. وخصص عدة صفحات للجزائر" (بالحميسي، د.ت، صفحة 22).

تناول فيها الحديث عن الغرب الجزائري (وهران وتلمسان)، وخصّه بحديث مستفيض عن حكامه وتاريخه وأحواله السياسية، ثم أورد تاريخ القلعة ومستغانم، معسكر وتهرت، وخص قسنطينة بفقهاء وشيوخ أفاضل اجتمع بهم فيها. أما العاصمة فأفرد جامع كتشاوة الذي كان في مرحلة تجديد بوصف رائع لم يسبق إليه، وخصه برسالة وقصيدة سنية، وخص حسن باشا بمدحية عظيمة، خلد فيها مآثره من عدالة ومحاربة فلول الكفر وتحرير وهران وفك أسرى المسلمين.

إن هذا الرصد لهذه الرحلات قصدنا منه نوعا من المقارنة نجريها بين مضامينها ومضامين رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي، لنبيّن مدى خطورة هذه الأخيرة.

2.2 مضامين رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي****:

وهي الرحلة التي ترجمها المستشرق الأمريكي هودسون مستشار المندوبية الأمريكية في اسطنبول مشيدا بأهميتها، ثم تلقفها المترجمون الفرنسيون. والرحلة ترشدنا إلى المسالك والطرق التي كانت تربط بين المدن الجنوبية، مع محاولة ضبط للمسافات الفاصلة بينها. أما عن المناطق والمدن فقد كان يعمد إلى توصيف مفصل لمدن الجنوب الجزائري؛ موقعها وجغرافيتها، وأسوارها وحصونها، عمرانها، وجبالها يقول واصفا جبل عمور: "إن جبل عمور جبل عال جدا وفيه مائة عين جارية، وينبع منه نهر كبير .. وأرض هذا الجبل صالحة للزراعة. وفيه كل أنواع الخشب. ويقدر طوله وعرضه بحوالي مسافة يومين لكل منهما. والسكان هناك يربون الإبل، وبعضهم يربي المعز والغنم. وهم من أجود الفرسان. ولغتهم هي العربية. ولا يحكمهم أي سلطان. ويقدر عدد المسلحين في جبل عمور بحوالي ستة آلاف شخص، بينما عدد مسلحي عين ماضي حوالي ثلاثمائة رجل، أما مسلحو الأغواط فحوالي ألف." (سعدالله، 2011، صفحة 89) كما يحصي أنواع غلالها ومصادر الماء، وعلاقات سكانها، لغتهم وفرقهم الدينية، وحاكمهم وممتلكاته، وعلاقاته بالمدن المجاورة، والقوة العسكرية (عدد الجند ونوع الأسلحة)، ومعادنها، وحال التجارة فيها، وأسواقها وعملتها المتداولة، وحال الأوبئة فيها، وكذا حال النساء من التستر والظهور... كما ضمن رحلته طريقة صنع البارود يقول مفصلا: "وجميع سكان الصحاري يعرفون فن صناعة البارود. وطريقتهم فيه هي هذه: يجمع التراب من الأرض أو من الملاط في القرى المهدمة. وهذا التراب الذي كان في الأصل من مادة مالحة يوضع في ماعون ويصب عليه الماء، بنفس الطريقة التي يعالج بها الرماد عند صناعة الصابون. ثم يغلي الماء إلى أن يصبح خاثرا. ثم يؤخذ رطل منه ويخلط مع أربعة أرطال من الكبريت وأربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى. وهذه العناصر المختلفة تخلط جميعا في غضون أربع ساعات، فتصير بارودا. وفي الصحراء منجم عظيم من الرصاص. والعرب يأتون منه بكميات لبيعها، ولا يقع هذا المنجم تحت سلطة اية قبيلة. وهو يقع شرقي أولا نايل، وهو يسمى جبل الرصاص.." (سعدالله، 2011، صفحة 91)

إن ما يلفت الانتباه في رحلته، تركيز الحديث على أشياء دون غيرها، تتكرر في كل مرة، بل وتذهب به الدقة والتركيز إلى لفت الانتباه إليها في حالة التوفر أو عدمه، والأمر يتعلق بالحصون، الموقع، المسافات، الوديان، آبار الماء، خيرات المنطقة، والعدّة العسكرية. يقول معرفا

بمدينة تيميمون: "إن تيميمون بلدة كبيرة، ولكن ليس لها أسوار تحميها لأن منازلها جميعا متراصة، ولها سوق عظيم. وفيها التمر، بالإضافة إلى غيره من الثمار، وفيها مياه غزيرة.. وأهلها يتكلمون البربرية.. وتوجد فيها الخيول بكثرة. ولها سوق يباع فيه العبيد وتراب الذهب بكميات كبيرة .. وأهلها يملكون قطعانا كبيرة من الماشية." (سعدالله، 2011، صفحة 93)

ويقول مخبرا عن ورقلة: "والمسافة بين المنيعة وورقلة مسيرة خمسة أيام، وورقلة بلدة كبيرة جدا، ولها سور يحيط بها فيه عدة أبواب.. ولورقلة منابع مائية كثيرة." (سعدالله، 2011، صفحة 92) وعن المنيعة يقول:"تقع هذه القرية وسط الرمال وليس لها ماء باستثناء ما يجلب من الآبار، وسكانها يسمون بالشعابنة وهم يتكلمون العربية، ويركبون الجمال، وليس لهم خيول. وسلاحهم من السيوف والبنادق والرماح.. وليس لهذه القرية سور.. وتنتج التمر والحلفاء." (سعدالله، 2011، صفحة 92)

ويبتدئ الحديث عن متليلي بقوله: "ليس لمتليلي أسوار وليس فيها ماء باستثناء ما يستخرج بالطواحين، ووجه الأرض هنا ليس رمليا منبسطا بل هو عبارة عن هضاب مغطاة بصخور حادة، تقطع كالسكاكين. وينمو هنا النخيل وقلما تنزل المطر. ولغة السكان هي العربية والبربرية. وهم يركبون الجمال، ومسلحون بالبنادق والسيوف." (سعدالله، 2011، صفحة 90) وعن المسافات يخص رحلته من المنيعة إلى توات بإحصاء المسافات يقول: "والمسافة بين المنيعة وأوالن مسيرة، وفي أوالن آبار، وكذلك تمر، وتقع هذه القرية في الصحراء.. ومن أوالن إلى الأحمر مسافة يوم، وفي هذا المكان بئر عمقه حوالي ثلاثين ذراعا، ومن الأحمر إلى بئر النهل مسافة يوم. ومن بئر النهل إلى بئر اللفعاية مسافة يوم. ومن بئر اللفعاية إلى بئر الزرق مسافة يوم.." (سعدالله، 2011، صفحة 92)

إن البحث في معمارية الرحلة يجلّي غيابا لحكاية السفر أو متعة السفر، فلا عجائبي ولا غرائبي ولا جمالي ولا اعتناء ببلاغة الرحلة وشعريتها، فالشخصية القيّمة على إنتاج القول هاهنا لا تستدعي سرودا، فتوصيف الرحلة غير قائم على صياغة سردية، أو على ما له صلة بالمذكرات واليوميات وأجناس البوح السير-ذاتية، وأشكال التصوير وتقنياته، فما قدّمه ابن الدين في نصوصه كان بمثابة توال خطي لأوصاف توثيقية وتسجيل جغرافي، لذلك يصعب إدراجها في دائرة الأدب، فما كان همه هو تقديم مسح لأماكن من حيث موقعها الجغرافي، والعسكري والاقتصادي، فالمساحة الأكبر داخل نص الرحلة لما تُمنحْ لتوصيف أحداث الرحلة ومعاناتها والمشاعر التي انتابت المرتحل في مواقفه المختلفة، بل كانت صورا متلاحقة في الزمان والمكان، تنتج تقريرا يوظف وصفاً من الدرجة الصفر، لأن الهم الأساسي فيها كان الإبلاغ، فهي نوع من التقرير بيّن سفرية لأداء مهمة محددة ومرسومة الأهداف مسبقا. فالشخصية القيمة على إنتاج القول في هذه الرحلة تغدو "مجرد ذات مسجلة للمعطيات المرئية والتاريخية والفضائية التي تمثل أمامها." (الزاهي، 2013، صفحة 170) لأنها لا تتجاوز حدود نقل المعلومات أو مجرد الإخبار متجاوزة أي هدف جمالي للرحلة، أي لا تصبح على "حد تعبير رويلك ويلسون RuelK. Wilson أدبا." (ذاكر، 2003، صفحة 239)

3.قيمة هذه الرحلات:

إن قيمة هذه الرحلات –عموما- تكمن في رصدها لجوانب شتى تاريخية وجغرافية ووثائقية وثقافية وعلمية وأدبية، فهي تشكّل معينا ثرا للمشتغلين بالتاريخ والجغرافيا والآثار والبلدان، والمشتغلين بأخبار الناس وتقاليدهم وعاداتهم، بل وحتى المشتغلين بالأدب والفقه فهي ترصد عيون الكتب والمخطوطات، وتؤشر على طرق التدريس والتلقين، فضلا عما تفيد به المرتحل من علم وافر وتجارب، فالعلاقات التي ركز الزياني على وصفها "تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية .. لذا كان للرحلات قيمة تعليمية من حيث إنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين." (محمد فهيم، 1989، صفحة 16)

ترى نوال عبد الرحمن شويكة أن "الرحلات تكشف ما لا يكشفه التاريخ، فالتاريخ عام يشتمل على تصوير لحياة البلدان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ونظم الحكم لشعب من الشعوب، وهذا ما حققته الرحلات غير أنها أعطت كل ذلك بعده المناسب، وتطرقت إلى

تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية، فقامت الرحلات بوضع كل ذلك في دائرة الإشعاع التي توجّه إليها لاستجلاء الواقع، وإخراج التاريخ عن حدوده الضيّقة." (الشوايكة، 2008، صفحة 52)

إننا نرى في هذه الأعمال، وما قدمت من مادة ثرية، دليلا بارزا على قيمة رحلاتهم في تزويدهم مباشرة بالمعلومات المستمدة من الملاحظة المباشرة، والمعاينة الشخصية للأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زاروها، وعن طبائع أهلها وتقاليدهم ومعالم حضارتهم، وهذا يشكّل جوهر العمل الإثنوغرافي. هذا ولا يقتصر الأمر على كون هؤلاء الرحالة إثنوغرافيين، وإنما نجدهم أو نجد بعضهم على الأقل قد برزوا أيضا كأدباء، وأن مادة رحلاتهم قد زخرت بالعناصر الأدبية. (الشوايكة، 2008، الصفحات 13-14) فأدب الرحلات يعين أيضا المشتغلين بالأدب على رصد النصوص الشعرية التي أبدعها الرحالة في مناسبات شتى، وعلى الشعرية الخاصة التي يتأسس عليها المعمار الأدبي لهذا النوع من الخطاب ذي التداخل الأجناسي الواسع.

وهو كما يصوره حسين حسني محمود "يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير. فالرحلات منابع ثرّة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور." (حسني محمود، د.ت، صفحة 5) وهو ما حوته هذه الرحلات التي وإن اختلفت في قوالبها وأشكالها وأساليبها ومضامينها إلا أنها تجمع على تقديم صورة مشرقة عن المجتمع الجزائري بتنظيمه الاجتماعي والعسكري، وفكره، وعلومه، لتدل على تقدم علمي ورقي حضاري، وقيادة عسكرية ناجحة لتدحض بذلك مقولات الرحالة المستشرقين المغرضة*****

4. تلقي الآخر للنصوص الرحلية:

إن هذه المادة الاثنوغرافية التي قدمتها هذه الرحلات جعلت الكثير من الأقلام الغربية تتولى ترجمتها؛ فرحلة التمقروتي إلى الجزائر طبعها ديك استري Decastries ثم نقل إلى الفرنسية الكثير منها. ورحلة العياشي لفتت أنظار الكثير من المستشرقين الذين نقلوها كاملا أو جزئيا وأثنوا عليها ومن بينهم:

بربيقر Berbrugger "رحلة في جنوب الجزائر والولايات البربرية للشمال والشرق للعياشي ومولاي أحمد (استطلاع علمي عن الجزائر - علوم تارخية وجغرافية-).

بريهمات Brihmat في " رحلة أبو سليم عبد الله العياشي" في مجلة الإسلام. (بالحميسي، د.ت، الصفحات 17-18)

أما رحلة الزياني فقد حرص الأب برجيس (Bargés) على نقل جزء منها إلى الفرنسية وهو المتعلق بتاريخ تلمسان معللا ذلك بقوله أن هذا العرض التاريخي يقدّم بعض التفاصيل لم توجد عند من سبقوه، أو أنهم ذكروها لكن بصفة غير كافية. (بالحميسي، د.ت، الصفحات 36-37)

وقد نقل رحلة الأغواطي إلى الانجليزية وليام ب. هودسون، ثم تلقفتها مجلة "أخبار الرحلات الجديدة" الفرنسية لتترجمها إلى الفرنسية، ثم ترجمها دافيزاك D'Avezac وقرأ الترجمة في جوان 1833م على أعضاء الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس. وقد كان الفرنسيون أكثر اهتماما عندئذ بافريقية من الأمريكيين كما يقول أبو القاسم سعد الله. (سعدالله، 2011، صفحة 83)

أما نصها الانجليزي فقد نشره هودسون في وقائع لجنة الترجمة من اللغات الشرقية، ثم عمدت مجلة "نورث أمريكا ريفيو" إلى تلخيصه سنة 1832م، وكان موضع اهتمام وتعاليق الباحثين في هذا الميدان. وقد ذكر هودسون****** أن هذه الرحلة تحتوي على معلومات لم يسبق للأوروبيين أن عرفوها حتى أولئك الذين رحلوا وكتبوا عن افريقية. كما يذكر أنه من أمَرَ الحاج ابن الدين بكتابتها ودفع له مقابلها المالي يقول (موقعا باسم وليام ب. هودسون وزارة الخارجية الأمريكية واشنطون، 3 سبتمبر 1830م): "لقد أعددت ترجمة لرحلة قصيرة في شمال افريقية قام بها ابن الدين الأغواطي، وهذه الرحلة كتبها صاحبها بطلب مني، وقد دفعت له الثمن. إنني أعتقد أن الرحلة تحتوي على معلومات تهم جغرافية إقليمية، بحيث تكون مفيدة للرحالة في المستقبل. إن معظم المدن والشعوب التي تحدث عنها ابن الدين غير معروفة

معرفة جيدة، بل إن بعضها لم يشر إليها أي رحالة أو جغرافي أوروبي من قبل، حتى ليون الإفريقي نفسه لم يذكرها. إن هدفي الأساسي من الحصول على هذا المخطوط هو التأكيد على امتداد رقعة اللغة البربرية." (سعدالله، 2011، صفحة 85)

5. مخاطر المادة الإثنوغرافية في النص الرحلي:

إن ما اشتملت عليه هذه الرحلات من موضوعات تتصل بوصف الأقاليم وطبائع البشر، وطرائق الحياة، ولغات أو لهجات هي أمور رئيسية في الوصف الإثنوغرافي لأسلوب حياة مجتمع ما، كانت المادة الدسمة التي لفتت انتباه الغرب لتلقّفها والاهتمام بأمر ترجمتها ودراستها بل والنبش فيها، بعد التكليف بكتابتها وفق مقاسات محددة تستجيب للغاية المتوخاة. فحركة العربي في مجتمع عربي تتسم بالحرية، وإتقانه لذات اللغة، وفهمه لدين العرب وعاداتهم وتقاليدهم تجعل رحلته أكثر إلماما، بل تجعلها حفرية معرفية متأصلة تعين الآخر على معرفة كل خصوصيات الشرق من الداخل.

فالأمر يتجاوز حدود الترجمة لمعرفة الشرق معرفة بريئة، بل إن الدراسات الاستشراقية وإيفاد البعثات كانت تحظى بالدعم الرسمي المخطط له، والدراسة التي أنجزتها فرانسيس ستونر سوندرز عام 1999 وعنونتها بـ "من دفع أجرة العازف؟" Who Paid the Piper- The CIA and the Cultural Cold War تفضح دور المخابرات الغربية في تمويل هذا النوع من الدراسات. والعنوان هو جزء من مثل إنجليزي يقول: "من يدفع أجر العازف يختر اللحن" فالمخابرات الغربية هي التي كانت تتولى دفع أجر العازف بسخاء، لكن مع اختيار الألحان التي عزفها الجميع. (حمودة، 2001، صفحة 73)

وتفضح أحداث الإضرابات التي شنها الطلاب الأمريكيون في خريف عام 1968م، حين علموا أن جزءا كبيرا من ميزانيات أقسام اللغويات في الجامعات الأمريكية الكبرى تأتي من المخابرات الأمريكية، عن طريق مؤسسات ثقافية مرموقة أو مؤسسات وهمية كانت تنشأ لهذا الغرض، فاشتعلت المظاهرات احتجاجا على تدخل المخابرات في الشؤون الجامعية. فـ"ماذا كانت أهداف المخابرات الغربية من وراء ذلك التمويل؟ كان طلاب الدراسات العليا في هذه الأقسام، الذين ينتمون إلى ثقافات ولغات العالم "الآخر" غير الغربي، يوجهون لكتابة أطروحاتهم التخصصية عن لغاتهم بل لهجاتهم المختلفة. وفي نهاية الأمر تصب هذه الأطروحات والدراسات المتخصصة في مراكز المعلومات المعنية في جهاز المخابرات للاستفادة منها في دراسة تلك اللغات بلهجاتها المختلفة، ومن ثم في تسهيل عمليات الاختراق للثقافات القومية في شتى أنحاء العالم." (حمودة، 2001، الصفحات 73-74) لذلك ألفينا المستشرق العاكف على دراسة اللهجة البربرية هودسون يكلّف الأغواطي ويدفع له، مقابل التقرير المفصل المحدد بتلك الشروط الضابطة.

يعلن كيرزون في سبتمبر 1909م أمام مجلس اللوردات البريطاني قائلا: "معرفتنا لا بلغات شعوب الشرق فقط بل بعاداتهم ومشاعرهم وتقاليدهم وتاريخهم ودينهم، وقدرتنا على أن نفهم ما يمكن أن يسمى عبقرية الشرق، تمثّل الأساس الأوحد الذي يمكننا من الحفاظ في المستقبل على الموقع الذي فزنا به." (سعيد، 2006، صفحة 335) ويقول بعد خمس سنوات من هذا في مؤتمر مانش هاوس: إن الدراسات الشرقية ليست ترفا فكريا، ولكنها التزام إمبراطوري كبير، فأنا أرى أن إنشاء مدرسة مثل هذه في لندن يمثل جزءا من الأثاث اللازم للإمبراطورية. إن أبناء جلدتنا الذين قضوا بصورة ما عددا من السنين في الشرق، ويرونها أسعد سنوات حياتهم ويعتقدون أن العمل الذي قمنا به هناك، مهما بلغ حجمه، يمثل أرفع مسؤولية يمكن إلقاؤها على كواهل الإنجليز، يشعرون بوجود ثغرة في جهازنا القومي وبأنه لا بد بكل تأكيد من سدّ هذه الثغرة، وبأن رجال الأعمال في مدينة لندن الذين سوف يشاركون في سدّها بتقديم الدعم المالي أو أي شكل آخر من أشكال المعونة النشطة والعملية سوف يؤدون واجبا وطنيا نحو الإمبراطورية ويعززون القضية." (سعيد، 2006، صفحة 336) يعلق ادوارد سعيد يقول: "وأفكار كيرزون عن الدراسات الشرقية مستقاة إلى حد كبير، وبصورة منطقية، من حصاد قرن كامل من الإدارة البريطانية النفعية للمستعمرات الشرقية والفلسفة الناشئة حولها."(سعيد، 2006، صفحة 336)

وعندما نسمع إدوارد سعيد يقول "وأما أبرز صور التلاقي بين عقائد الاستشراق الكامن وبين خبرة الاستشراق السافر فلم تشهدها فترة مثل فترة تطلع بريطانيا وفرنسا إلى تمزيق الأراضي التابعة لتركيا .. كان رجل أوروبا المريض أي الدولة العثمانية يستلقي على منضدة العمليات استعدادا للجراحة، ويكشف عن جميع مناحي ضعفه، وخصائصه، وحدوده المكانية أو الطبوغرافية." (سعيد، 2006، صفحة 348) نفهم خصوصيات ذلك التقرير الذي كتبه ابن الدين في نصه الرحلي.

لقد كان حجر الزاوية للنظم الغربية الطامعة يتمثل في تحصيل معرفة مكثفة ودقيقة عن المناطق التي تخطط لاستعمارها، وقد كانت المادة الاثنوغرافية التي تقدمها تلك الرحلات بتفاصيلها تحقق هذا الهدف، يقول إدوارد سعيد "كان المستشرقون على مدى عقود طويلة يتحدثون عن الشرق، فيترجمون النصوص، ويشرحون الحضارات والأديان والأسر الحاكمة والثقافات والعقليات، باعتبارها جميعا موضوعات أكاديمية يحجبها عن أوروبا طابعها الأجنبي الذي لا مثيل له. كان المستشرق خبيرا، وظيفته في المجتمع أن يفسر الشرق ويوضحه لزملائه المواطنين." (سعيد، 2006، الصفحات 346-347) فالمشروع الاستعماري الذي سينجز يستدعي كل هذا الجهد والتخطيط.

على أن هذا المشروع الاستعماري في القرن التاسع عشر الذي يشار إليه بتعبير "التزاحم على إفريقيا"، بمعنى التسابق للظفر بها - كما يقول ادوارد سعيد - لم يكن مقصورا على إفريقيا وحدها، بطبيعة الحال، بل ولم يكن اختراق الشرق مجرد فكرة طارئة مفاجئة مثيرة خطرت للغرب بعد سنوات من الدراسة العلمية لآسيا، فالواقع أنه لا بد من التسليم بوجود خطوات كثيرة تتسم بطول المدى وبطء الحركة أدت إلى امتلاك الشرق، أي مكنت أوروبا، أو مكنت الوعي الأوروبي بالشرق من التحوّل من وعي يقوم على النصوص والتأمل إلى ظاهرة إدارية واقتصادية بل وحربية. وكان التغير الجوهري تغيرا مكانيا وجغرافيا، أو قل إنه كان تغيرا في نوع الإدراك الجغرافي والمكاني فيما يتعلق بالشرق." (سعيد، 2006، صفحة 330) هذا الإدراك الذي قدمه النص الرحلي للآخر على طبق من ذهب.

هكذا فتح النص الرحلي للأغواطي شهية الغرب، ووفر له المعرفة الكافية التي كان يحتاجها.

6. خاتمة:

نخلص في نهاية هذه الدراسة إلى أن عدسات الرحالة كانت خير حافظ لما لم يوثقه المؤرخون عن تاريخ الجزائر وجغرافيتها ومعالم الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية والاقتصادية والعسكرية، إلا أن بعضها كان مفخخا وشكّل تعرية وكشفا سافرا هيأ للمستشرقين والاستعمار تنفيذ مخططاته. وقد خلص البحث إلى نتائج لعل أهمها ما ترصده النقاط الآتية:

- جل المتون الرحلية التي أوردنا كانت تنبع من نوايا استكشافية وتوثيقية وتعليمية عدا متن الحاج ابن الدين الأغواطي.
- المادة الاثنوغرافية في المتون الرحلية كانت وجهة المستشرقين، فقد كانت معينا ثرا نهلوا منه لاستخلاص ما يخدم نواياهم المغرضة.
- يمكن عد المتون الرحلية سيفا ذا حدين وبخاصة في تلك الفترة العصيبة من تاريخ التخطيط للإجهاز على تركة الرجل المريض.

توصي الباحثة بضرورة تمحيص المتون الرحلية وغربلتها وتصنيفها للتعريف بما كان منها لغايات استطلاعية استكشافية حفظت تاريخ المنطقة بخصوصياتها في تلك المرحلة، وبخاصة في شقها العلمي والإبداعي (الشعري الذي لم يحفظ في دواوين مستقلة)، وما كان منها لغايات نفعية انجرف أصحابها خلف المصلحة الشخصية فكانوا عونا للمدّ الاستشراقي وقدموا أوطانهم على طبق من ذهب للقوى الاستعمارية.

7. قائمة المراجع:

المصادر:

- سعد الله، أبوالقاسم، (2011)، مجموع رحلات - رحلات جزائرية – رحلة الأغواطي، الحاج ابن الدين، تأليف وتحقيق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع.

المراجع:

- بالحميسي، مولاي، (د.ت)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- حسني محمود، حسين، (د.ت)، أدب الرحلة عند العرب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حمودة، عبد العزيز، (2001)، المرايا المقعرة- نحو نظرية نقدية عربية- ، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- ذاكر، عبد النبي، (ديسمبر 2003)، الرحلة وسؤال الكتابة/ القراءة، جذور المملكة العربية السعودية، مج8، ج15.
- الزاهي، فريد، (ربيع 2013)، الممانعة والفتنة – الجسد الذات والصورة متخيل الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا-، مجلة الكوفة العراق، السنة 2، ع 2.
- سعد الله، أبوالقاسم، (2011)، مجموع رحلات - رحلات جزائرية – رحلة الأغواطي، الحاج ابن الدين، تأليف وتحقيق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع.
- سعيد، ادوارد، (2006)، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.
- الشوابكة، نوال عبد الرحمن، (2008)، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، الأردن، دار المأمون للنشر والتوزيع.
- محمد فهيم، حسين، (1989)، أدب الرحلات، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الهوامش

* - هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي التمقروتي (1560- 1594م) (نسبة إلى قرية تمقروت بالمغرب الأقصى)، كلفه السلطان أحمد المنصور بسفارة إلى اسطنبول في أواخر القرن السادس عشر (1589م-1591م) لتحسين العلاقة بين السعديين وآل عثمان بعد ما نالها من توتر "ففي سنة 1581 خشي أحمد المنصور أن يشن أتراك الجزائر غارة على بلاده فقرر إرسال بعثة إلى القسطنطينية ومنذ ذلك الوقت تكررت السفارات إلى اسطنبول تحمل الهدايا إلى الخاقان فرحلته تأتي في إطار هذه المهمة. ينظر، بالحميسي، مولاي، (د.ت)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص؛ 16.

** - هو أبو سليم عبد الله بن أبي بكر العياشي الفاسي(1628م-1679م)، ولد بقبيلة آيت عياش قرب تافلالت بفاس، بعد أن تلقى علومه الأولى على يد والده وشيوخ الزاوية بفاس ارتحل إلى المشرق للمزيد من التحصيل العلمي (ثلاث مرات: الأولى سنة 1649، والثانية سنة 1653، والثالثة سنة 1661م)، توفي بالمغرب الأقصى بداء الطاعون سنة 1679م. وقد كان محدثا وصوفيا وعالما وشاعرا، خلّف منظومة في البيوع وأخرى في التصوف سماها "تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية"، وكتاب في التراجم عنوانه "اقتفاء الآثار بعد ذهاب أهل الآثار". نفسه، ص؛ 17.

*** - هو أبو القاسم بن أحمد بن علي الزياني (1743- 1833)، رحالة وأديب ووزير مغربي، ولد بفاس سنة 1734م، وتعلم بها. قام بعدّة رحلات منها رحلة أداء فريضة الحج التي مكنته من المرور بإيطاليا والإقامة فيها لمدة أربعة أشهر، ثم بمرسيليا وبرشلونة. عين سنة 1786م سفيرا باسطنبول فارتحل مارا بمالقة وتونس. وقد تقلب به الزمن بعد وفاة محمد بن عبد الله (1790م) الذي سجنه وصادر أمواله. ثم حينما عادت له الكرة في خلافة مولاي سليمان (1792) الذي عينه واليا على وجدة لإخماد الفتنة بها هوجم وثُبت أمواله، فلجأ إلى المغرب الأوسط. ارتحل إلى المشرق وإلى اسطنبول والجزائر وتونس، ثم عاد إلى المغرب وتوفي في نوفمبر 1833م. وخلف من الآثار: "الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب" (في التاريخ العام)، "البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف" (تاريخ الدولة العلوية)، "رسالة السلوك فيما يجب على الملوك" (في السياسة)، إلا أن أشهر ما خلفه كان في الأدب الرحلي الذي عنونه بـ "الترجمانة الكبرى".نفسه، ص؛ 22.

**** - حاول محقق رحلة الأغواطي أن يعرّف بالحاج ابن الدين الأغواطي فسأل عنه ليتبيّن له أنه لم يكن معروفا، رغم أن عائلة "ابن الدين" كانت موجودة في المناطق التلية بالجزائر، ولم يزد على إيراد بعض الأوصاف التي استقاها من نص رحلته والتي تحدد بأنه "كان قليل التعلم كثير الاطلاع .. فهو من الظاهر كان من (المستمعين) الذين يعرفون ولا يدققون، يلمون ولا يتخصصون، وكثرة اطلاعه فتدل عليها خبرته بالمناطق التي وصفها والتي يؤكد في مناسبات عديدة أنه رأى ما كان يتحدث عنه، ولعل اسمه "الحاج" يدل على أنه أدى مناسك الحج وتوقف في بعض العواصم الإسلامية مثل حجاج وقته، كما أن وصفه للدرعية، عاصمة أول دولة سعودية وهابية يدل على أنه لم يتوقف عند زيارة الحجاز، وقد ذهب إلى وصف أماكن من افريقية مثل شنقيط وتمبكتو وغدامس." سعد الله أبو القاسم، مجموع رحلات - رحلات جزائرية – رحلة الأغواطي، ص؛ 80-81.

***** - يعلن روك كيفيل ودولاكروا وإمريت .. أن الجزائر هي "عش اللصوصية.. يذوق النصارى فيها مختلف أنواع العذاب، وسجون العاصمة مكتظة بهم..". ويجرأ شيلر على نفي وجود العلم والتعلم في الجزائر ويدعي أن السكان يحتقرون العلوم ويكتفون بتعلم القرآن الذي هو كل آدابهم. ينظر بالحميسي، مولاي، م.س. ص؛ 31.

****** - مثل بلاده في الجزائر كقنصل عام لها (1825-1829)، بعد أن أهلته خبرته باللغات الشرقية لذلك، ألقى عدة أبحاث عن شمال إفريقية أمام الجمعية الفلسفية الأمريكية التي نشرت أبحاثه في مجلتها. ينظر سعد الله أبو القاسم، مجموع رحلات - رحلات جزائرية – رحلة الأغواطي، ص؛ 81.